# الفصل الرابع
# الأسس الخاصة بإجماع كوكبى

**من يمكنه ان يقود العالم ؟**

فى إطار الحاجة التى أبرزها بول كينيدى إلى إعادة تعليم الجنس البشرى (فى كتابه عن الإعداد للقرن الـ ٢١) ، وفى أثناء رحلة التوجه إلى ابتكار مؤسسات عالمية جديدة (بخصوص التعاون والتخطيط من أجل العدل والسلام) يستحق الأمر قدر من تحليل أنظمة القيمة الاقتصادية التى استخدمها العالم فى القرن العشرين ، وبالتحديد الرأسمالية – الاشتراكية – الشيوعية . غير أنه يجدر بنا قبل ذلك تعرف (وفحص) المقصود بأيديولوچيا ، وكذلك المهام العالمية للأيديولوچيا .

**الأيديولوچيا**

يمكن تعريف الأيديولوچيات بأنها منظومات من الافتراضات عن القيم التى تستعملها المجتمعات لتشكيل أنشطتها . أو بمعنى آخر تكون الأيديولوچيا عملاً إطارياً فكرياً يعرِّف المجتمع من خلال القيم ، ومن خلاله أيضاً يعطى المجتمع لهذه القيم حيوية مؤسسية .

ومن خلال تعريف الأيديولوچيا ، يمكن التوصل إلى الاستنتاجات المهمة التالية :

* الأيديولوچيات تمثل جسوراً أو كبارى لحمل قيم مقبولة عالمياً (مثل استمرار الحياة – العدل – احترام الذات – الإيجابية – الاقتصاد ، بمعنى أن تكون الفوائد أكثر من التكلفة ... إلخ) .
* دون أيديولوچيا لا يوجد مجتمع .
* الأيديولوچيا ينبغى أن تلائم العالم الحقيقى real world ، وبالتالى كما يتغير العالم تتغير أيضاً الأيديولوچيا ، فهى ليست ولا ينبغى أن تكون «دوجما» .

**مكونات الأيديولوچيا :**

يمكن تقسيم الأيديولوچيا إلى مكونات خمسة :

١ – العلاقة بين الإنسان والمجتمع (الفرد – المجموعة – وسائل احترام الذات ... إلخ) .

٢ – الضمانات والمظاهر المؤسسية الخاصة بعلاقة الإنسان مع المجتمع (مثلاً حقوق الملكية) .

٣ – الوسائل المناسبة لضبط إنتاج السلع والخدمات .

٤ – دور الحكومة .

٥ – الإحساس العام بخصوص الحقيقة فيما يتعلق بالقضايا العامة (مثل دور العلم وأهمية التعليم ووظائفه ... إلخ) .

**التحول في الأيديولوچيا :**

تماماً كما يحدث التحول فى النموذج الاسترشادى (والذى سبق الإشارة إليه) يحدث أيضاً تحول فى الأيديولوچيا . وإذا كان التحول فى النموذج هو بوجه عام أمر شاق فإنه بالنسبة للأيديولوچيا ربما أكثر صعوبة وأكثر مشقة . فالتحول فى الأيديولوچيا يسبقه ابتعاد عن الشرعية القائمة ، أو يسبقه ما يظهر كأنه «شيزوفرانيا» أيديولوچية ، وسرعان ما تظهر فجوة بين الولاء للقديم وظهور الجديد . إن المؤسسات التى تغادر الأيديولوچيات السائدة سعياً لموائمة العالم الحقيقى ؛ من أجل الحصول على فرص أكثر وقدرة أبر على مواجهة التحديات تفتقد إلى الشرعية ، وتظل بالنسبة للمجتمع فى حالة جنوح (لا ذنب لها فيه) إلى أن تعود إلى الأيديولوچيا السائدة ، أو حتى تتغير هذه الأيديولوچيا بحيث تدعم التصرفات الجديدة .

**الرأسمالية :**

تعرف الرأسمالية بأنها نسق يرعى ويؤيد وجود رأسماليين . كما يعرف الرأسمالى بأنه فرد قام بتجميع رأسمال لديه ، أو أن لديه رأسمالاً متاحًا للتوظيف فى مشروعات وأعمال تجارية . هذا يعنى أن الرأسمالية نسق يعلى من شأن حقوق الملكية الفردية والتملك الخاص ، ويترك فيه توزيع الثروة للتنافس عبر الأفراد المهتمين بمصالحهم فى هذا الشأن .

لقد استمدت الرأسمالية شرعيتها من فكر الاقتصادى الاسكتلندى ، آدم سميث (١٧٢٣–١٧٩٠) والذى يرى أن التنافسية بين الملاك فى سوق مفتوح ، تؤدى إلى المجتمع السليم ، كما استمدت شرعيتها أيضاً من فكرة الفيلسوف الانجليزى چون لوك (١٦٣٢–١٧٠٤) بأن الحكومة شر لابد منه ، إنها الأفكار التى اعتبرها كلا الرجلين تتفق مع النظام الطبيعى natural order (هنا ينبغى إدراك أن ما هو طبيعى عند بروتستانت إنجلترا ربما لا يكون كذلك عند كاثوليك إيطاليا أو مسلمى العراق أو كنفوشيسيى الصين أو شينتونيى اليابان) .

وهكذا يرتبط الفكر الرأسمالى بأيديولوچية فردية . لقد أتت الأفكار الفردية إلى أمريكا فى القرن الـ ١٨ ، بعد أن تم وضعها فى انجلترا ، وفى أمريكا وجدت هذه الأفكار أرضاً برية خصبة قليلة السكان ، حيث اعتبرت الفردية النموذج الخاص بالحلم الأمريكى . ورغم النزعة الفردية الكامنة فى المجتمع الأمريكى ؛ إلا أن هذا المجتمع قد شد الآن إلى الكوميونيتاريانية (من خلال التعامل التنافسى مع اليابان ، ومن خلال متطلبات التكامل البيئى) . وهذا لا ينسينا أن الولايات المتحدة كانت فى الأصل لمبدأ كوميونيتاريانيا ، ولا ينسينا العكس وهو أن الفردية (كما يقول صمويل هينتينجتون) موجودة فى القلب جداً من الهوية الأمريكية ؛ بحيث أن الأمريكيين

لا يمكن أن ينفضوا عن الفردية ، دون أن يصبحوا غير أمريكيين . هنا ينبغى تجنب التوصل إلى افتراض خاطىء ، وهو أنه طالما الرأسمالية مرتبطة بأيديولوجية فردية وأن الاشتراكية مرتبطة بأيديولوجية مجتمعية (أو كوميونيتاريانية) ، وطالما أن الرأسمالية هزمت الاشتراكية ، فتكون الفردية قد عزمت المجتمعية . الحقيقة هى أن الأيديولوجيات الثلاث أصبحت بدون معنى meaningless حيث أنها قد استبدلت بمخلوطات متباينة من الثلاث أيديولوجيات . هذه المخاليط mixtures تختلف جذرياً عبر المجتمعات القومية والإقليمية ، ولكن كلها تشترك فى أيديولوجيا . مجتمعية communitarian ideology تتعارض مع الأيديولوجية الفردية individualistic ideology .

من المهم هنا أن لا يغيب عن الأذهان المثال الهام الخاص بأوروبا الشرقية . لقد هزت الجلاسنوست والبيرسترويكا هذه البلدان ؛ مما جعل قياداتها تنحى جانباً المناهج القديمة ، وتتجه إلى استقدام أنقى أشكال الرأسمالية (التجارة الحرة – السوق الحرة – المؤسسات الحرة – الكيانات الخاصة – الحكومة المحدودة ... وأشياء أخرى) ، ولم يمر وقت طويل قبل أن تدرك هذه القيادات أن تقاليدهم السياسية وسياساتهم ، وكذلك الأهداف الاستراتيجية العالمية تتطلب خطوات هى بطبيعتها مجتمعية (وليست فردية) ، وهى :

* احتياج العمال إلى أسهم فى المشروع الذى يعملون فيه .
* وجوب تحجيم حقوق الملكية لأسباب بيئية ، وللتأكد من توزيع متعادل للدخل.
* واجب الحكومة فى أن تخطط وتفكر بشأن الاحتياجات طويلة المدى للمجتمع community .

ربما يمكن القول إذاً أن الخيارات لدى كل الأمم هى خيارات فى إطار مجتمعى (كوميونيتاريانى) ، حيث نجد على أرض الواقع قوى عولمية (أو كوكبية) global forces (مثل التنافسية التجارية وحماية البيئة) تدفع المنظومات الوطنية تجاه تقارب أيديولوچى ، مما يجعل التباينات – حتى بين الأشكال المختلفة للكوميونياريانية – تتقلص .

**الاشتراكية :**

ظهرت الاشتراكية فى الثلاثينيات من القرن الـ ١٩ فى إطار المواجهة والاعتراض على ما أحدثته الرأسمالية من عدم عدالة . ولقد عرف چوزيف شومبيتر الاشتراكية بأنها «شكل مؤسسى يتم فيه التحكم فى وسائل الإنتاج ، وفى الإنتاج نفسه بواسطة سلطة مركزية» ، كما وردت فى قاموس اكسفورد باعتبارها «نظرية سياسية لتنظيم المجتمع تهدف إلى (وتدافع عن) الملكية والتحكم فى وسائل الإنتاج

والأرض ... إلخ لتكون بواسطة المجتمع ككل . ولتكون الإدارة والتوزيع من أجل مصالح الجميع» .

**الشيوعية :**

ربما يكون المصطلح communism قد استعمل لأول مرة فى فرنسا عام ١٨٤٠ ، ثم استخدمه كارل ماركس عام ١٨٤٨ فى مطبوعة «المانيفستو الشيوعى» .

تشير الموسوعة البريطانية إلى الشيوعية باعتبارها نظاماً للمجتمع ، تكون فيه الملكيات properties مملوكة بواسطة المجتمع ؛ حيث تقسم الثروة بواسطة المواطنين طبقاً لاحتياجاتهم . وعند ظهور الاتحاد السوفيتى فى منتصف القرن العشرين أصاب الخلل استعمال كلمة شيوعية ؛ حيث صار المصطلح يعنى أى نظام تقوم عليه مؤسسات سياسية تصف نفسها بالشيوعية .

فى نهاية هذا العرض للأيديولوچيات الثلاث الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية يمكن القول أنها كانت مخلوقات القرن الـ ١٩ ، وأنها قد اكتسبت معانيها من تفاعلاتها مع بعضها البعض ، وأنه بنهاية القرن العشرين تداخلت هذه الأيديولوچيات وحدث لها قدر من الإذابة . لقد قامت الأنظمة الرأسمالية باستيعاب واستلهام معظم أهداف الاشتراكية (وربما وسائلها أيضاً) ، كما أدركت الأنظمة الاشتراكية أن وصولها إلى أهدافها السامية ، أمر يتطلب عديداً من الوسائل الرأسمالية . لقد كان چوزيف شومبيتر إذاً محقاً جزئياً عندما توقع أن الرأسمالية ستحطم نفسها ، لقد أعطى لذلك ثلاثة أسباب :

١ - أن البيروقراطية فى المؤسسات الكبرى ستقلل من الابتكار ، والذى هو أساس لنجاح الرأسمالى .

٢ - ضعف الفردية نتيجة لتغلغل وانتشار الملكية .

٣ - أن الرأسمالية تشجع الطموح النقدى وإنتاج مثقفين لديهم «شغف كبير بالحركية الاجتماعية» .

وهكذا كانت أسباب ومظاهر التحرك من الرأسمالية والاشتراكية إلى المجتمعية أو «الكوميونيتاريانية» .

**كوميونيتاريانية الأنظمة الآسيوية**

لابد من الاعتراف بأن التنمية فى الأنظمة الاقتصادية الآسيوية ليس لديها ما تفعله مع الـ isms الغربية (الكابيتاليزم - السوشياليزم - الكوميونيزم) ، وهى أنظمة تواصل - مجتمعية (كوميونيتاريانية) تشترك فى خاصية وجود هذا التواصل وتختلف بخصوص أشكاله . فمثلاً فى الصين وتايون يكون هدف البيزنس إثراء العائلة Familism ، بينما فى اليابان يكون خدمة الهيبة الأعظم للوطن ورفاهية

أعضاء المؤسسة . وبوجه عام يمكن اعتبار المحرك (أو المحفز) الرئيسى فى أنظمة آسيا انتعاش المجتمع ، وليس سيادة الفرد.

**الخصائص الكوميونيتاريانية للأنظمة الآسيوية :**

يمكن ذكر الخصائص الرئيسية فى هذا الخصوص بإيجاز كما يلى :

١ - علاقات تعاونية (بين البيزنس والحكومة - المديرين والمدارين ... إلخ) تنتج مستوى عالياً من «الإجماع» consensus كخلفية للأهداف القومية .

٢ - قيام الاتفاق والإجماع على أساس عدالة المشاركة فى كل من «الكسب الاقتصادى» .. و .. الألم الاقتصادى (ملحوظة : لدى بلدان شرق آسيا أحسن درجة تساوى فى توزيع الدخل على مستوى العالم) .

٣ - إعطاء التنافسية القومية أولوية على مستوى الأهداف القومية مما يساعد الأمة فى الحصول على نصيب من السوق العالمية بالنسبة لعائدات المنتجات ذات القيمة المضافة العالية ، وفى هذا الإطار لا يكون هناك تمييز ظاهر ، أو مؤثر بين القطاعين العام والخاص .

**الكوميونيتاريانية من منظور الفكر الدينى :**

مهما كانت هناك جذور فردية أو رأسمالية فى العقيدة الدينية ، فإن هذه الجذور قد تشتت الآن وتبخرت .

من الأمثلة على ذلك قول البابا بول السادس (١٩٦٧) : «لا تعطى الملكية الخاصة لأى فرد حقاً مطلقاً أو غير مشروط . لا أحد يحق له الاحتفاظ ( من أجل استخدامه الخاص) بما ليس هو فى حاجة إليه بينما يكون هناك آخرون محرومون من الضروريات» .

ومن الأمثلة أيضاً قول البابا جون بول الثانى (١٩٩٣) فيما قد يعتبر أكبر هجوم من الكنيسة على الفردية : «ليس من المقبول القول أن هزيمة ما يطلق عليه اشتراكية يترك الرأسمالية كنموذج وحيد للتنظيم الاقتصادى» .